فضيلة الوفاء

الإنسان فى التصور الإسلامى قمة الكائنات الحية التى تعيش على وجه البسيطة وأفضلها وأكرمها لما أودعه الله فيه من مزايا، وميزه من صفات، والإسلام يريد أن يعيش الإنسان فى جو الاطمئنان، والاستمتاع بالحياة الإنسانية استمتاعاً يرفع الإنسانية، فوق مستوى الاحتكاك والصراع والشك، وأن المؤمن فى نظر الإسلام هو الحسن والمحسن هو صاحب الوجدان الرفيع، وهو صاحب الإنسانية فى سلوكه مع نفسه ومع غيره.

قال الله تعالى فى سورة النساء: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً**﴾[1]. فالله سبحانه وتعالى أوجد الإنسانية من نفس واحدة وأنشأ من هذه النفس زوجها، ومنهما نشر فى الوجود رجالاً كثيراً ونساءَ فالإنسانية تنتهى إلى تلك النفس الواحدة.

وقال تعالى فى سورة الحجرات: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾**﴾[2]. خلق الله الناس متساوين من أصل واحد هو آدم وحواءُ وصيرهم بالتكاثر جموعاً عظيمة وقبائل متعددة ليتم التعاون والتعارف وإن تباعدت ديارهم وأوطانهم وتباينت عاداتهم واختلفت لغاتهم وأجناسهم.

وقال تعالى فى سورة الروم: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ**﴾[3].

---

(١) النساء: ١.

(٢) الحجرات: ١٣.

(٣) الروم: ٢٢.

وللناس مع بعضهم روابط وثيقة، وصلات متينة، ومعاملات لاغنى لهم عنها وليس بميسور لأى إنسان كائناً ما كان أن يعيش منعزلا، ولو كان شجاعاً هماماً وبطلا صنديدا، والطبيعة البشرية تحتم على الإنسان أن يندمج بالناس ويختلط بهم، ويستعين بذوى الخبرة منهم، وأن يسترشد بنصح الناصحين، وتوجيه النابهين.

وإذا كان من الضرورة الإنسانية فى الإسلام أن لا حياة للأجسام إلا بالأرواح، فكذلك الأعمال على اختلاف أنواعها لا حياة لها إلا بالثقة المتبادلة التى يُجْتَنَى من ورائها الاطمئنان والنجاح. فبالثقة تنتظم الأُمور، وتنجز الشئون، وتستقيم الأعمال، وتؤدى المصالح على أحسن حال. والثقة لا تحقق إلا إذا أدى كل إنسان ما عُهِد إليه وألزم به نفسه. يقول القائل :

إذا قلت فى شىءٍ نعم فـأتمه ... فـإن نعم دين على الحر واجب

وإلا فقل لا تسترح وتُرح بها ... لئلا يقول الناس إنك كاذب

فبالثقة وحدها يسعد الناس، ويصلون إلى الفوز والفلاح والتعاون المثمر، وإذا انعدمت الثقة ذهب الاطمئنان وأصبح كل إنسان يخاف الآخر ، ولا يطمئن إليه فى أمر من الأُمور، ولن تكون الثقة إلا عن أمانة ووفاء. فليس من الإيمان أن يُؤْتمن الإنسان على مال فيجحده، أو على عرض فيهتكه، أو على سر فيذيعه، أو على عمل فيهمله، أو على نصرة صديق فيخذله. قال تعالى فى سورة الإسراء: ﴿ **وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً** ﴾ [الإسراء: ٣٤]. وهل الوفاءُ إلا إلزام النفس بأمر الغير أياً كان، وتوفية الإنسان ذلك الأمر إلى مستحقه، على رضا ورغبة وطمأنينة؟؟ فالصادق فى وعده، والوفى بعهده، والأمين على ما ائتمن عليه. مُنَعَّمٌ فى أهله، معزز فى قومه، محبب إلى الناس إن قال قبل قوله، وإن طلب أمراً أُجيب إلى طلبه.

فسارِع الوفاءَ للناس تحظى عندهم ... بجميل ذكر لا تنال مطالبـه

والعرب قبل الإسلام كانوا أحرص الناس على فضيلة الوفاء، ولقد بلغ من إكبارهم لتلك الفضيلة أن أقاموا لها مُثلا «بضم الميم جمع مثال» ومما يروى أن السموءل بن عادياء طالبه خصوم امرىء القيس أن يسلم إليهم سلاحه وودائعه أو يضربوا عنق ابنه. وكان السموءل قد امتنع منهم بحصنه وكانوا قد ظفروا بابنه خارج الحصن. فأبى وفاءُ السموءل إلا أن يرى عنق ابنه تضرب ورأسه تطيح ثمنًا للوفاء بالعهد وفى ذلك يقول:

وفيت بأدرع الكندى إنى ... إذا ما ذم قوم وفيت
بنى لى عاديًا حصنًا حصينًا ... وبئرًا كلما شئت استقيت
وأوصى عاديًا يومًا بألاَّ ... تهدم يا سموءل ما بنيت

ولهذا المظهر النبيل من الوفاء بقى المثل المشهور (أوفى من السموءل) ومن طريف ما جاءَ فى باب الوفاء أن الملك النعمان بن المنذر كان له يومان يوم بؤس لا يظفر فيه بأحد إلا قتله. ويوم نعيم لا يصادف فيه أحداً إلا أنعم عليه. فظفر يوم بؤس برجل أخذ بعيدا عن ديار قبيله. فلما قدم للقتل طلب مهلة ثلاثة أيام يذهب فيها ليرى أهله ويرجع ليقتل.

فطلب الملك منه كفيلاً بذلك فنظر الرجل إلى وجوه الحاشية لعله يجد ذا مروءة يكفله. وبعد لأى وقع اختياره على (شريك) فخجل شريك وكفل الرجل على أنه إذا غاب عن الموعد تقدم هو ليقتل بدله. وذهب الرجل وغاب ثلاثة أيام. وجاءَت ساعة الموعد وتقدم (شريك) للقتل وأسف القوم على (شريك) أن تكون هكذا خاتمته، وجعلوا يتطلعوا إلى الطرق من كل ناحية وإذا بشخص يلوح من بعيد تحت الغبار مقبلا فى أشد ساعة عرفت، فأخروا قتل (شريك) حتى يتجلى خبره، وبعد قليل تبين أن الرجل قد حضر وفاءً لموعده. فعجب الناس لهذا الوفاء وكأنما أُخذوا بغاشية. ومن بينهم الملك الذى كان عجبه بقدوم الرجل أشد من إعجابه بإقدام شريك على كفالته.

فسأل (شريك) لم كفلته؟

فقال: حذر أن يقال ذهبت المروءة من الناس.

وسأل الرجل لم أقدم على القتل بالحضور؟

فقال: حذر أن يقال ذهب الوفاء من الناس.

فقال الملك: وأنا عفوت عنكما لئلا يقال ذهب العدل من الناس.

ومن ذلك اليوم أبطل الملك تلك العادة الظالمة.

ومما يدل على مدى حب العرب لفضيلة الوفاء أن (لبيد بن ربيعة) أحد أصحاب المعلقات. بل صاحب أجود المعلقات على الإطلاق وأحد المخضرمين والمعمرين الذين أدركوا الإسلام على كمال وصلاح وعفة ومروءة لما أحس بدنو أجله لم يختر لتأبينه إلا بيتاً واحداً جامعاً لأشرف ضروب الوفاء.

إذ يقول :

تمنى ابنتـاى أن يعيش أبوهمـا ... وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر؟

فإن حان يوما أن يموت أبوكما ... فلا تخمشا وجها ولاتحلقا شعراً

وقولا هو المرء الذى لا حليفه ... أضاع ولا خان الصديق ولا غدر

إلى سنة ثم السـلام عليكما ... ومن يبك حولا كاملاً فقد اعتذر

ألا ما أبدع ما اختاره لبيد لوصفه (هو المرءُ الذى لا حليفه أضاع ولا خان الصديق ولا غدر) أليس فى ذلك أنبل وفاء؟

وإذا كان العرب قد اهتموا بفضيلة الوفاء وأقاموا لها مُثلا فكذلك اتخذوا مثلا لخلف الوعد جاءَت من الواقع المر الذى يعيشه بعض الناس. وأظهر تلك المثل وأشهرها (عرقوب) واسمه : صخر بن معد بن أسد من العمالقة وأتاه سائل . فقال : إذا أطلع النخل. فلما أطلع قال: إذا أبلح. فلما أبلح قال : إذا أزهى. فلما أزهى قال : إذا أرطب. فلما أرطب قال : إذا أتمر . فلما أتمر ، جذه ليلا ولم يعطه. فقال فيه الشاعر:-

وعدت وكان الخلف منك سجية ... مواعيد عرقوب أخاه بيثرب

وما أبدع قول كعب بن زهير:

ولا تمسك بالوعد الذى وعدت ... وإلا كما تمسك الماءَ الغرابيل

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا ... وما مواعيدها إلا الأباطيل

والوفاءُ بالوعد خلق كريم ينشأُ عن الصبر والشجاعة والكرم ومن لم يظفر بتلك الخلال الطيبة لم يكن أهلاً للوفاء الذى كثيراً ما يتطلب التضحية وبذل النفس والنفيس، والغزالى رحمه الله يجعل الوفاءَ بالوعد ضربا من الصدق. وهو يقسم الصدق إلى ضروب. ويقول الصدق الرابع: الوفاءُ بالعزم، فإن النفس قد تسخو بالعزم فى الحال إذ لا مشقة فى الوعد والعزم ولا مُؤْنة فيه. فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن انحلت العزيمة لغلبة الشهوات ولم يتحقق الوفاءُ بالعزم. وهذا يضاد الصدق فيه ولذلك قال تعالى: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**﴾[1]. وقد روى عن أنس أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرًا مع رسول الله ﷺ فشق ذلك على قلبه وقال: أول مشهد مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع. فشهد أُحداً فى العام القادم فاستقبله سعد بن معاذ. فقال: يا أبا عمر إلى أين؟ فقال: واهاً لريح الجنة. إنى أجد ريحها دون أُحد، فقاتل حتى قُتل فوجد فى جسده بضع وثمانون ما بين ضربة ورمية وطعنة. فقالت أُخته: ما عرفت أخى إلا ببنانه.

فنزلت هذه الآية: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ**﴾[2].

والباحث يرى أن الغزالي على حق فى عد الوفاءِ بالوعد من الصدق لأن الصدق يوجد كلما وجد الوفاءُ بالوعد.

وقد كان رسول الله ﷺ مثلا عالياً فى الوفاء حتى قبل البعثة. فعن عبد الله ابن الحمساء رضى الله عنه قال: بايعت النبى ﷺ ببيع قبل أن يُبعث فبقيت له بقية ووعدته أن آتيه فى مكان فنسيت ثم تذكرت ذلك بعد ثلاث فجئت فإذا هو فى مكانه، فقال: يا فتى لقد شققت على أنا هنا منذ ثلاث أنتظرك.

(١، ٢) الأحزاب: ٢٣.

والوفاءُ بالوعد فضيلة تصلح لأن يمدح بها الأنبياءُ كما قال الله تعالى فى سورة مريم: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾[١]. والأمر فى (واذكر) للرسول محمد ﷺ أى اتل أيها الرسول على الناس ما فى القرآن من قصة إسماعيل أنه كان يصدق فى وعده وقد وعد أباه بالصبر على ذبحه له، ووفى بوعده ففداه الله وشرفه بالرسالة والنبوة.

والوفاء بالوعد قوام الأُمم وملاكُها، وعليه مدار نظامها وحياتها، وهو عماد الرقى والحضارة قال تعالى فى سورة البقرة ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾[٢]. والموفون بعهدهم هم الذين إذا وعدوا أنجزوا وإذا نذروا وفوا، وإذا حلفوا بروا فى أيمانهم، وإذا قالوا صدقوا فى قولهم، وإذا ائتمنوا أدوا الأمانة. وقال سبحانه وتعالى فى سورة المؤمنون: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾[٣]. وهم محافظون على كل ما ائتمنوا عليه من مال أو عمل، وعلى كل عهد بينهم وبين الله، أو بينهم وبين الناس فلا يخفون الأمانات ولا ينقضون العهود.

وإن من الوفاء الاحتفاظ بالعهد للغير ولو بعد وفاته. فقد روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن صديقة لخديجة دخلت على النبى ﷺ بعد وفاتها، فهش لها وأحسن السؤال عنها فلما خرجت قال: (إنها كانت تأتينا أيام خديجة وإن حسن العهد من الإيمان).

ولقد كان المسلمون أحرص الناس على التمسك بفضيلة الوفاء ومراعاة حدوده والالتزام بها فى مختلف الظروف وشتى المناسبات، والوفاء شُعبه من شعب الإيمان، وخلة من أجمل الخلال، وخصلة من خصال الخير، وفضيلة من فضائل البر تكشف عن نبل فاعلها.

وسحائب الرضوان الإلهى وصور الهبات والعطايا يخلعها الله سبحانه وتعالى على المؤمنين، جزاءً لهم وتكريماً، حيث يتبوؤن بها منازل الكرامة ويتربعون على عروش المجد والعزة.

---

(١) مريم: ٥٤.

(٢) البقرة: ١٧٧.

(٣) المؤمنون: ٨.